

الدرجة المغربية

أفصح اللجات العربية

الأستاذ: إبراهيم مرككات

متعاقبة .

وهكذا فاللهجة الدارجة عندنا تستمد معظم أصولها من الاندلس وبنى هلال وبنى سليم - والباقي وهو قليل يأخذ عن البربرية ونادرا عن التركية وأخيرا الآسيانية والفرنسية اللتين أضافنا الى اللهجة المغربية مصطلحات وعبارات دخيلة كثيرة .

بيد أن الناظر في اللهجة الاندلسية القديمة يجد كثيرا من الفاظها مازال جاريا على اللسان بالمغرب ، ومن البديهي أن هذه الالفاظ ليست في معظمها الا عربية محرفة أو نصيحة . ولحسن الحظ ، فاننا نتوفر في هذا الموضوع على مصدر بالغ الاهمية خلفه لنا مؤلف مجهول من القرن التاسع الهجري وهو عصر اضلال الدولة المرينية وارتقاء الوطاسيين الى العرش . وهذا المؤلف هو : « الجمالة » ، في ازالة الرطانة ، وقد وضعه مؤلفه كما يتضح من عنوانه لتقويم اللهجة الاندلسية التي ظلت في مظهرها تحتفظ بطابع عربي أصيل . ومن الاخطاء التي نبه الاندلسيين الى ضرورة اصلاحها ، قولهم : (سكر بضم الكاف) والجوف (بضم الجيم) والمرأة تغير على وجهها (عوض تغار) والقيح (بكسر القاف) والسلعة (بفتح السين) وطرف (بسكون الراء) ، القطيب (وغيره) ويد ، ودم (بشد الاخير في كليهما) ودخان (بشد) ونخالة (بشد) ويديدة (تصغير يد ، والصواب يدية) وحك وحكة (والصواب حق وحقة) . وكل هذه الالفاظ مازال مستعملة بالمغرب الى يومنا هذا خصوصا في الحواضر . على ان بعض الالفاظ التي ساقها المؤلف كأخطاء أصبحت غير متداولة بالمغرب منذ وقت غير محدد ، ومن ذلك يوم السبت (بكسر السين) والجبهة (بكسر الجيم) والخط (بكسر الخاء) والبرق (بفتح) عوض البرق (بسكون)

وكيفما كان الحال ، فان الدارجة الاندلسية لاتنحرف في كثير عن العربية الفصحى . ولا تزال

ليس من قبيل التعصب الضيق أن نصل الى هذه الحقيقة التي يحددها عنوان هذا البحث الصغير ، فالمسألة لها جانب تاريخي واجتماعي قبل كل شيء : ذلك أن المغرب بحكم عدم اختلاط اهله بأجناس كثيرة منذ ما قبل الاسلام وبعده لم تفسد لهجته بقدر ما فسدت في مناطق أخرى .

فالمغرب لم يبيل بحكم التتر ولا الاتراك ولا الدول الفارسية ولا غيرها من العناصر التي من شأن اختلاط العرب بها أن يؤثر في لغتهم بقدر قليل أو كثير وقد وقع ذلك فعلا في البلاد الشرقية ، خاصة مصر والشام ، والواقع أن المغرب بدأ يشهد تكون بعض الجاليات المسيحية من عدة بلاد أوروبية منذ عصر السعديين خاصة ، ونعلم كذلك أن عناصر مختلفة من السودان والاكراذ والأستبان شاركت في الجيوش المغربية ابتداء من عصر المرابطين . بيد أن كل هذه العناصر لم يكن لها أثر يستحق الذكر بالقياس الى الاثر الذي خلفه في ميدان اللغة وفود العرب الفاتحين ثم هجرة بنى هلال وبنى سليم التي ان كانت قد خلفت اضرارا سياسية واجتماعية بالغة فانها سجلت أعظم أثر في تكوين اللهجة الدارجة الاصلية بالمغرب .

على أن الدارجة بهذه البلاد قد استمدت كثيرا من أصولها من بلاد الاندلس التي حظيت باستقبال عدد ضخم من أفواج العرب الذين قدموا اليها من بلاد الشرق على العموم وخاصة الشام والعراق .

وعلى الرغم من نظرية ابن خلدون التي تقر أن المغلوب يقلد لغة الغالب ، فإن الذي حدث بالنسبة الى المغرب أنه تأثر في الميدان اللغوي والاجتماعي بالاندلس الى درجة كبيرة حتى اننا نستطيع أن نؤكد أن اللهجة الحضرية بعدد من مدن المغرب كقاس وتطوان وسلا والرباط أكثرها مستمد من أصول أندلسية ، ولعل هذه حقيقة تكاد تكون معروفة بالبداهة اذا علمنا أن هذه المدن وغيرها قطنها جاليات أندلسية في هجرات

اللهجة المغربية تستعمل الفاظ عريقة في الفصحاة ، بعضها يستعمل في الحواضر والبادي وبعضها خاص بهذه أو تلك . على أنه لا يمكن التردد في أن فصاحة اللهجة بالبادي كالنواحي الصحراوية وناحية الشاوية أعرق منها . في الحواضر ، إذ الاحتكاك بالعناصر الأجنبية منذ دخول العرب إلى هذه النواحي كان أقل منه في جهات أخرى . ومن جملة اللفاظ التي لاتزال تروج في اللهجة المغربية ، قولهم : نتخ بمعنى سرق وأصله من نتخ الطير أي خطف بمنسره ، ولذلك « حسيفه » وخطرة (بمعنى المرة) وتنبألي بمعنى انقضى (وأصله الصحيح تسلي) وسكر الباب (بمعنى اغلقه) وأصله من السريانية كما جاء في بحث لعالم سرياني في مجلة العربي (عدد 18 ص 106)

وكذلك نقول : ضربه الله بمعنى أضله وطنز عليه (والصحيح طنز به) وفلان مضروب على كذا (نهجه سلا والرباط) وأصله من ضرب على الشيء إذا تطبع به وأولع به .

ولفظ (باله) الذي يستعمله التجار معناه الجراب الضخم في الأصل (فقه اللغة للثعالبي ص 67) . وكلمة عيان بمعنى متعب ، خطأ عربي قديم عرف في صدر الدولة العباسية ، وانتقل بنفس الصيغة إلى المغرب . قال ابن السكيت « أعيب في المشي أعيس أعيا ، وأنا معي ولا يقال عيان » (إصلاح المنطق ص 268) . ونقول أيضا الشوار وهو في الفصحى : الشوار (بشد الشين وفتحها) بمعنى متاع البيت (تهذيب إصلاح المنطق للتبريزي ج 2 ص 22) .

ونقول : غوى السمن أو اللحم ، وأصله كما نص عليه أبو هلال العسكري : بشم من كثرة شرب اللبن ، أو مات هذا إلا إذا لم يرو من لبن أمه ، فأصله كما أثبت أبو هلال ، الفساد (الفروق اللغوية ص 176) ونقول : فلان غشيم ، وهو من يسهل معاملته ظلما (فروق لغوية ص 192) .

كما نقول : خربق عمله بمعنى أفسده ، وهو منحوت من خرب وخرق (والآخر الذي لا يحسن عمله) وقد شرح ذلك ابن فارس في مقاييس اللغة (ج 2 ص 146)

والدارجة المغربية مع هذا تلتقي في جوانب كثيرة مع الدارجة في جهات أخرى من بلاد العرب . ومن الطريف أن نذكر أن أهل حضر موت يقولون « لرض » عوض الأرض ، وبغيت بمعنى أردت و « جات اللي جاو » ويعجب بمعنى يحضر ورواك بمعنى أراك ، وكل هذه اللفاظ وغيرها جارية بالمغرب على نفس الصيغة . والكلمة الأخيرة « رواه » تستعمل بفاس خاصة .

ونحن في غنى عن التنويه بفصاحة اللهجة الصحراوية في المنطقة التي تمتد من مشارف كوليمين إلى موريطنيا ، فقد تعرب بعض قبائل هذه المنطقة التي كان يعمرها منذ قرون طويلة عناصر من صنهاجة ، كما انضافت إليهم أفواج من بدو العرب الذين انسجموا كلياً مع السكان الأصليين . ولا يزال قرص الشعر ارتجالاً أو أعداداً من الأمور المألوفة في كل أسرة تقريباً ، وأكثرهم يحفظ من الشعر قسطاً هاماً . وقد أتيج لي منذ سنتين تقريباً أن ألس هذه الحقيقة عن كتب في تلكم الجهة القاصية من المغرب ، حيث تحدثت إلى مسؤول في أعماق الصحراء اعترف لي بأنه لا يحسن القراءة ولا الكتابة ، ولكنه انشدني من شعر ابن الرومي والمتنبي وغيرهما شيئاً كثيراً ! وزودني بعض فضلائهم بقصائد من انتاجهم غاية في الجزالة . وبين طان طان وكوليمين تقع مقهى متواضعة لا يسع من لفحة حر الصحراء أو اعتاد البساطة في الاختلاط بالناس إلا أن يعرج عليها وما كدت ادخل بابها حتى بادرت ربها مدعياً بعد السلام : وانت يا أخي تحفظ أيضاً من الشعر نصيباً ؟ فما اهلني حتى نشر من كنانته سهاما وقد رأيت يقبع في زاوية مظلمة من مقهاه وهو يطارح رفيقا له ، فاستغربت كيف تنفذ الفصحاة والمنطق العذب إلى ربيع أنشأ ما يكون عن العمران واقرب ما يكون إلى المغازاة التي لا نيس بها ولا ما يشجع على المقام .

فاذا كانت الجامعات اللغوية عاجزة أو كالعاجزة عن أن تجد في بطون الكتب ما يشفي غليلها في إصلاح العربية أو العودة بها إلى فصاحتها الأصلية ، فستجد قطعاً في الدارجة ما يسد نقصاً كبيراً في هذا الباب . وإذا كانت الدعوة إلى استغلال الدارجة دعوة قديمة ، فإن قليلين يعلمون أن لهجة المغرب أفصح لهجات البلاد العربية ، نظراً للأسباب التي مر ذكرها آنفاً . ومن العبث محاولة استقصاء الأمثال التي تدل على عراقية اللهجة المغربية في العروبة ، في بحث قصير كهذا ، ومن المناسب أن أنهى بمعجم مركز التعريب (I) الذي تضمن قسطاً كبيراً من ألفاظ هذه اللهجة ، وينبغي أن يستمر هذا المجهود في دراسة متعمقة ومقارنة ، فقد يولد في يوم ما ، المجمع اللغوي المغربي الذي سيوجد من هذا المعجم وأمثاله مادة حيّة تنير سبيله .

إبراهيم حركات

1 - يشير صاحب البحث إلى « معجم الأصول العربية والأجنبية للغة المغربية » تأليف الأستاذ عبد العزيز بنعبد الله .